نحو جينالوجيا لمفهوم النقد العلمانيِّ

- طلال أسد -

ترجمة: كريم محمد

مقدمة المترجم:

هـذا النـصُّ للأنثربولوجـيِّ الكبـير (طـلال أسـد) Talal Asad، هـو في أصلـه مسـتلٌّ مـن نـصٍّ أكـبر لـه تحـت عنـوان: «**حريَّـة التعبـير، والتجديـف، والنَّقـد العلـمانيُّ**»، قـد شـارك بـه ضمـن كتـابٍ جماعـيٍّ تحـت عنـوان: «**هـل النَّقـد علـمانيٌّ؟ التجديـف والإهانـة وحريّـة التعبـير**»، Is critique secular? Blasphemy, injury, and free speech، مـع الأنثربولوجيَّـة (صبـا محمـود) saba mahmood، والفيلسـوفة الأمريكيَّـة (جوديـث بتلـر) Judith butler، وكان الكتـاب بالأسـاس عبـارة عـن نـدوة في جامعـة كليفورنيـا،

بيركلي، (عام ٢٠٠٧م)، وجاءت مساهمة كلٍّ من طلال أسد، وصبا محمود، مركّزةً على ما أثارته الرسوم الدنماركيَّة المسيئة للنبيِّ مُحمَّد -صلى الله عليه وسلّم- عام (٢٠٠٥م).

ويأتي هذا الجزء الذي قمتُ بترجمته من البحث الموسَّع الذي كتبه طلال أسد، فيما يتعلَّق بملاحظات تاريخيَّة على فكرة النقد العلماني Secular criticism -وهو مصطلح للرَّاحل المبجَّل إدوارد سعيد في كتابه: «**النصُّ والعالَم والنَّاقد**»- ارتأيت نقلها للعربيَّة من ضمن هذا البحث؛ نظرًا لأهميَّة ما طرحه طلال أسد في هذه (الملاحظات) التي هي أكبر من أن تكون ملاحظاتٍ بالمعنى المتبادر للذهن من ناحية، ومن ناحية ثانية لأنَّه يُبدِّد كثيرًا من متعالياتٍ حديثة تهيمن على فكرنا الحديث، من قبيل كلمات رنَّانة، كـ(النقد، وحريَّة التعبير)؛ ولذا: كان هذا الجزء بمثابة عمل جينالوجيا لمفهوم النَّقد في الثقافة الغربيَّة، حيث أفلتَ طلال من محدوديَّة فوكو في تنظيره لـ«ما هو النَّقد؟»، ومن إبهام إدوارد سعيد حول ماهيَّة «النَّقد العلمانيِّ». وإنَّ عنوان هذا الجزء بالنَّص الأصليِّ هو: «**ملاحظاتٌ تاريخيَّة على فكرة النَّقد العلمانيّ**»، وارتأيتُ جعْل عنوان الترجمة العربيّة: «**نحو جينالوجيا لمفهوم النَّقد العلمانيِّ**»، وسوف يتَّضح للقارئ -منذ بداية النَّصِّ- وجاهة هذا التحوير الذي يبرز المضمونَ الفعليَّ للنصِّ بكلِّ تأكيد.

وطلال أسد هو أستاذ مُبرَّز في الأنثربولوجيا بجامعة نيوسيتي بنيويورك، ويُقدِّم أطروحات بالغة الأهميَّة في حقول متعدِّدة كحقل النظريَّة ما بعد الكولونياليَّة، والمسيحيَّة، والتقاليد الإسلاميَّة، إضافة إلى مساهماته العظيمة عن العلمانيَّة، وجينالوجيا الدين. وللأسف، رغم كتب طلال أسد شديدة الأهميَّة، فلم يُترجم له في العربيَّة سوى نصوصٍ ضئيلة، منها كتاب واحد تحت عنوان: «**عن التفجيرات الانتحاريَّة**»، وقد ترجمه: فاضل جكتر، ومن أهمِّ كتب طلال

كتاب: «**تشكُّلات العلماني: المسيحيَّة، والإسلام، والحداثة**»، و«جينالوجيّات الدين»، وغيرها من الأبحاث والمقالات.

وأحبُّ أن أشير إلى أمرين:

أولًا: أنَّ النصَّ المترجم يقع في أصله الإنجليزيِّ من الكتاب المذكور عاليه من الصفحة السادسة والأربعين، إلى الصفحة الخامسة والخمسين.

وثانيًا: أنَّ تقسيم النصِّ لفقرات مرتَّبة رقميًّا هو من صنعي، حتى لا يتيه القارئ، كما أنَّ الهوامش الثلاثة التي أدرجها طلال لهذه الصفحات قد ألحقتها بالمتن. كما أنَّني قسَّمت فقرات النصِّ على غير النصِّ الإنجليزيِّ؛ فطلال فقراته شديدة الطول، فارتأيت أن أُقسِّمها عند التعريب حتى لا يملَّ القارئ من طول الفقرة، نظرًا للأفكار المعمَّقة التي يطرحها، **وأيضًا:** فإنَّ الكلام الذي بين معقوفتين: [...] بالنصِّ مضافًا إليه حرف (م)؛ فإنَّه منِّي كتدخُّل طفيف لإضاءة مفهوم أو فكرة، وحرف الميم اختصارًا للمترجم.

النصُّ المترجمُ

(١)

كتبَ النَّاقد الأدبيُّ ذائع الصِّيت (**إدوارد سعيد**)، في مقالته المعنونة بـ «**النَّقدِ العلمانيِّ**»: إنَّ «النقد... دائمًا ما يكون موضعًا في سياق ما، ومتشككًا، وعلمانيًّا، ومنفتحًا على إمكانات فشله الخاص»[١].

والحال أنَّني أودُّ أن أضيف إلى ذلك ثلاثة أسئلة:

أوَّلًا: ما هي دلالة مفهوم (علمانيّ) Secular في هذا السياق؟ هل يشيرُ إلى سلطةٍ، أم إلى حساسيَّة ما؟

ثانيًا: بما أنَّ النَّقد يُصدر الحكم، وبما أنَّه يعمل على إدانةِ النفس والآخرين، فإلى أيِّ مدى يُمكنُه التخلِّي عن سمة الشَّكِّ كيما ينجز هذا الغرض؟

وأخيرًا: إذا اعتُبرَ النَّقدُ العلمانيُّ نفسه مخولًا بمكافحة القمع الباطش، وفي

(١) سعيد، «النَّص، والعالم، والناقد»، بوسطن، (١٩٨٣م)، (ص/ ٢٦).

الوقت ذاته وجد نفسَه مُنفتحًا على الفشل الذريع، فهل يمكننا القول إذن: إنَّ النَّقد العلمانيَّ يطمح إلى أن يكون بطلًا؟

إذن، ما هو النَّقدُ؟

ذلك بالطَّبع هو عنوان مقالٍ شهير، وحديث نسبيًّا، لميشيل فوكو تحت عنوان: «**ما هو النقد؟**»، والذي كان بالأساس عبارة عن محاضرة أُلقيت بالسوربون في السابع والعشرين من مايو (١٩٧٨م)، وفيها: سعى فوكو إلى أن يرادف بين مفهوم النَّقد ومفهوم كانط عن التنوير، **ومن ثَمَّ**: قدَّم النَّقد بوصفه السِّمة الجوهريَّة للغرب الحديث.

«لقد بَدَا ذلك مشتركًا بين المشروع الكانطيِّ رفيع الشأن، وبين تلك النشاطات البسيطة الجداليَّة والمتخصصة التي تتَّخذ اسم (النقد)، فقد كان هناك في الغرب الحديث (زمنيًّا، فيما يتراوح بين القرن الخامس العشر إلى السادس عشر) طريقةٌ معيَّنة في التفكير والحديث، وكذلك للتصرُّف، وكانت هناك أيضًا علاقة معيَّنة مع ما هو موجود، مع ما يعرفه المرء وما يفعله، مع المجتمع والثقافة والآخرين. كلُّ ذلك يمكن للمرء تسميته بـ(الموقف النقديِّ)[١].

وليس جليًّا إن كان فوكو يودُّ لنا أن نفهم كون (الموقف النقديِّ) هو سمة تخصُّ الغرب الحديث وحده، أم إنَّ ثَمَّة موقفًا نقديًّا يُميِّزُ الغرب، يختلف تمامًا عن الموقف النقديِّ الموجود في أي مكانٍ آخر وهو الموقف الذي مكَّنه [أي: الغرب الحديث -م] للمرَّة الأولى، من التفكير في (المتعالي) على النحو الذي أذِنَ للإنسانيَّة أن تصنع مستقبلها بنفسها.

وعلى كلٍّ؛ فقد اتضحَ إذن من رؤية فوكو، أنَّ كونك مستنيرًا، **يعني**: أن تتخذ موقفًا نقديًّا، وأنَّ انخراطك في النقد، مثلما فعلَ الغرب لعِدَّة قرون، **يعني**: أنَّك تعيش في التنوير، العيش كبطل، كما قال كانط في بداية هذا

---

(١) فوكو، «ما النقد؟ ضمن ما هو التنوير؟ أجوبة القرن الثامن عشر، وأسئلة القرن العشرين»، بريكلي، (١٩٩٦م)، (ص/ ٣٨٢).

المشروع. **والحقُّ:** أنَّ رؤية فوكو هذه، تعتبر مفاجِئةً بعض الشيء بالنسبة إليَّ؛ إذ كيف لجنيالوجيّ مثله أن ينحِّيَ جانبًا الحاجة إلى التفكير في مختلف المحدّدات التاريخيّة التي أنتجت -في ظروف مختلفة- (انتقادات) متنوعة، وليس نقدًا واحدًا، أنتجت تنوعًا في أنماط النقد، واستعمالاته وأهدافه. فلا مفهوم النقد ولا ممارسته Practice بذويْ تاريخٍ بسيط، وينبغي أن تُكتب جنيالوجيا لهما على أيَّة حال.

وما يلي هو -ببساطةٍ- مجموعة متنوعة من الملاحظات التاريخيَّة (والتي لن أقدم فيها -بالمناسبة- تعريفًا نهائيًّا واحدًا للنقد، ومن ثَمَّة: لن أعتمد أيَّ تمييز صارم بين مصطلح Criticism، ومصطلح Critique).

يرجع أصل كلمة (النّقد) Criticism في اليونانيَّة إلى فعل Krino، ويُشير إلى: (الفصل)، و(اتخاذ قرار)، و(الحكم على)، و(المهاجمة)، و(الاتهام). ويبدو أنَّ استعمالها الأوَّل كان في المجال القضائيِّ، حيثُ كان يُدعى كلُّ من قرار الاتهام وقرار المحكمة بـ(Krino)، وهكذا؛ فإنَّها تُحيل إلى القدرة على التمييز، وعلى طرْح أسئلة التحقيق، وعلى إصدار الحُكم. في هذا الميدان الدنيويِّ؛ فإنَّ بدايات الاستعمال الدلاليِّ لِـمَا ندعوه (نقدًا)، لم تكن تعني الرغبة في الاستيلاء على حقيقةٍ كونيَّة، ولكن كانت بالأساس لحلِّ أزمات مُعيَّنة بطريقة عادلة، ولتصحيح فضائل معيَّنة ضمن نمط حياة معيَّن[1].

كذلك، أفادني زميلي (جون والتش) John Wallach بأنَّ: «الفعل اليوناني Krino يدلُّ على (الفصل)، و(التمييز)، و(إصدار الحُكم). ومن الأسماء ذات الصلة به: Krisis، ويعني: نقطة تحول -من المحتمل أن تكون بين الحياة والموت. وKriterion، ويعني: معايير للحكم، بالإضافة إلى تنصيب القاضي. وإنَّه لم يكن ثمَّة فعل يونانيٌّ يرادف فعل (نقدَ)، الذي اشتق (من جذره الاسم) حديثًا في اللغة الإنجليزيَّة».

---

(١) راجع: (رينهارت كوثيليخ) Reinhart Koselleck، «النقد والأزمة: التنوير وأصول أمراض المجتمع الحديث»، (ص/ ١٠٣).

(٢)

يُمكن للنقد أن يتخذ شكل الخطاب الحُرِّ والمفتوح Parrhesia [وهو مصطلح ذو أصل يونانيٍّ، طوَّره فوكو، ومن أحد معانيه: الصدع بالحقِّ -م] في الميدان السياسيِّ.

على سبيل المثال:

المواعظ النقدية للفلاسفة الكلبيِّين في القرن الرابع قبل الميلاد، والتي كانت تستهدف الجميع، وكان الغرض منها تعليم الناس كيفيَّة تقييم نمط حياتهم الخاصَّة[1].

وانطلقت المسيحية من هذا التقليد: الكلام الحرّ والمفتوح، وقامت باستدخال كلمة Parrhesia في منظومتها الخاصة. وظلَّ النقدُ والدعوة إلى تقصِّي الحقيقة يُشكِّلان جزءًا مُهمًّا من الوعظ الرائج في العصر المسيحيِّ، وفي أواخر العصور الوسطى، راح الرهبان يعظون الناس في الأماكن العامَّة، مُستنكرين عليهم أنماط عيش معيَّنة، ومدافعين عن الحقيقة.

(١) انظر: ميشيل فوكو، «خطاب لا يعرف الخوف»، (ص/ ١١٩ - ١٣٣).

وعلى المستوى الأكاديميِّ؛ فإنَّ فكرة النقد كانت قد استُعملت/وُظفت في عددٍ من التخصُّصات الجامعيَّة، لكنَّها لم ترمز إلى الشيء نفسه، سواء تمَّ تطبيقها على النصوص الكلاسيكيَّة والكتاب المقدس، أو الحياة الاجتماعيَّة؛ إلَّا بعد مجيء الإصلاح الديني، وما أشعله من سجالات لاهوتيَّة، **ومن ثَمَّ:** فإنَّ الجواب على السؤال: (ما هو النقد؟) حينئذٍ، لم يكن مجرد: (التقييم والتأويل لحقيقة الكتاب المقدَّس).

كان الهدف من النقد في بداية الطريق، هو مُجرَّد التأكُّد من أصليَّة النصوص ودرجة موثوقيتها، وأيضًا تحديد معانيها. لكن، في نهايته، وبما أنَّه راح ينشغل بالحقيقة الماثلة في النصوص؛ فإنَّه قد تحوَّل إلى ما سوف يُسمَّى بالنقد التاريخيِّ للنصوص اليونانيَّة المكتشفة حديثًا، فضلًا عن الكتب المقدَّسة طبعًا.

هذا؛ وثمَّة شخصيَّة رئيسة هي مضرب المثل لهذا التطور الذي

لَحِقَ بهدف النقد، عنيتُ بيير بيابل Pierre Bayle[(١)]، فبالنسبة إلى شكَّاك القرن السابع عشر هذا، كان النقد يتمثَّل في التمييز بين العقل والوحي، عن طريق الفضح المُمنهج للأخطاء العقليَّة والسخريَّة منها.

في الواقع: فإنَّ بايل قد حاول أن يُحلِّل ويقوِّض كلَّ النظريات، عن طريق المُساءَلة المنطقية المُستمرَّة لها، بحيث يستطيع في النهاية البرهنة على أنَّ كُلَّ ما تم قبوله وبثقة على أسس عقلانيَّة، يمكن تقويضه بالاستدلال النَّقديِّ Critical reasoning. لقد تبدَّل استعمال النَّقد هنا إذن؛ ليصير بمثابة برهانٍ على ضرورة الإيمان، بقدر ما هو هجوم على موثوقيَّة العقل المطلقة.

والحال: أنَّ ذلك لم يكن أقدم توظيف لاهوتيٍّ للعقل، يتوخَّى اتخاذه شاهدًا للوحي ومصدقًا عليه، وإنَّما هو برهان علمانيٌّ جديد، على أنَّه لو قمنا بشدِّ خيط النقد إلى منتهاه؛ فإنَّه سينهار تحت وطأة ثقله الخاصِّ. سياسيًّا، قامت شكوكيَّة بايل الجذرية هذه، على فكرة (جمهورية آداب Republic of letters [وهو مصطلح يعني: جمهوريَّة تجمع المتنوِّرين دون اعتبارٍ للحدود السياسيَّة -م]، بلا فوارق، يكون فيها الجميع سواسية، عِوضًا عن الخضوع لأيَّة سلطة. وأمَّا فلسفيًّا؛ ففي الفلسفة التجريبيَّة، التقليد حديث النشأة آنذاك، اتخذ النقد بحصافة موقفًا وسطًا بين الشك والتصديق الساذج. بينما اجتماعيًّا؛ فضمن ثقافة إنتاج المعرفة التي ميَّزت القرن السابع عشر، كانت سلطة الوجاهة الاجتماعية والذوق الاجتماعيّ Gentlemanly -كما وضَّح ستيفن شابين Steven Shapin- هي أساس قبول شهادة المرء وقبول نقده المعتدل.

(٣)

في نهاية القرن الثامن عشر، هيمنت الكانطيَّة [وكانط هو: فيلسوف النَّقد كما هو معلوم -م] على الخطاب

(١) انظر: ريتشارد بوبكين Richard Popkin، «تاريخُ الشَّكِّ»، خصوصًا الفصل الثامن عشر.

الفلسفيِّ. **وبالطبع:** لم تكن الفلسفة هي المجال الوحيد الذي أُجري النقدُ فيه علنًا، فثمَّة العديد من النماذج النقديَّة خارج نطاق الفلسفة، قد انبنت على تقليد ثريٍّ من الأدوات الأدبيَّة والبلاغيَّة، لمهاجمة النِّفاق الاجتماعيِّ والفساد السياسيِّ، ولكن تبخيس قدر البلاغة في النظريَّات اللغويَّة في القرن التاسع عشر، أعاد إلى الواجهة ادعاءات الفلسفة عن نطاق مفاهيميّ فريد، يمكن فقط في صلبه تحديد النَّقد العقلانيِّ، وممارسته في صورة صحيحة.

من هنا: اعتبر الكانطيون أنَّ الثورة السياسية بمثابة عِوَضٍ عن النقد الفلسفيِّ، إنَّ ما يعنيهم هو تحقيق حرية النقد الفلسفيِّ حتى لو كان الثمن هو إجهاض الثورة السياسيَّة. لقد كان كانط هو مَن استبدلَ نموذج (جمهورية الآداب) بنموذجٍ آخر: (محكمة العقل) The court of reason. وهذا ما نبعَ فقط من انشغاله الفلسفيِّ المباشر بملكة الحُكم، ولكن أيضًا -وبشكلٍ غير مباشر- من رؤيته التي تقول: إنَّ الحقيقة لا تُضمن عن طريق التحرُّر من القيود السياسيَّة والكنسيَّة وفقط، وإنَّما أيضًا عن طريق تقدُّم العلم بالعقل وحدوده.

لقد كُلفت (محكمة العقل) بمَهمَّة جليلة في واقع الأمر: إحلال السلام على الحروب اللَّا نهائيَّة بين الدوغمائيَّات المتصارعة.

إنَّ النقد بالنسبة إلى فلاسفة التنوير الذين سبقوا كانط متأصِّلٌ في صُلب ميتافيزيقا معلمنة (في فكرة العقل البشريِّ)، وموجَّهٌ ضدّ ادعاءات كلٍّ من الكنيسة والدولة. أمَّا بالنسبة إلى كانط، فقد أصبح النَّقدُ عبارةً عن عمليَّات للتصحيح الإبستمولوجي الذاتي، عن طريق الالتزام الصارم بمرجعيَّة ما تقرَّر من حدود للعقل، والالتزام بالحدِّ الفاصل بين الإيمان الخاصِّ والعقل العموميِّ.

والحال: أنَّ هذا التصور الكانطيَّ للنقد بوصفه تحقيقًا في الشروط القبليَّة للحقائق العلميَّة، قد تسبَّب في فصل

النقـد، وإبعـاده عـن مجـالَيِ السياسـة والإيمان، ففـي فلسـفة كانط السياسيَّة: القانـون -وليـس النقـدُ- هـو الـذي يضع حـدًّا لفـوضى الميتافيزيقـا، وهـو الـذي يضـع الآثـار الفتَّاكـة للشُّـكوكيَّة قيـد التمحيـص؛ إنَّ النقـد مع كانط لـم يعد يـولي اهتمامًـا يُذكـر للحيـاة اليوميَّـة، وإنَّما كل اهتمامـه قـد غـدا مُنصبًّا عـلى الإبسـتمولوجيا.

عندمـا عـادَ الرومانتيكيُّون إلى مشـكلات الإسـتطيقا، كان ذلـك بمثابـة تحـدٍّ لهيمنة الخطـاب الكانطـي داخـل الفلسـفة.

ويعتـبر هيغـل الرمـز الأبـرز في هـذا السـياق، فهـو الـذي حمـل عـلى عاتقِـه مهمـة جعْـل النقـد مُحايثًـا في التاريـخ، بمعنـى: العقـل الترانسـنتدنتاليّ والـذات الفينمونولوجيَّـة (الفكـر والواقـع) ينبغـي ألَّا يكونـا منفصلـين، كـما كان كانـط يفصـل بينهـما، فكلاهـما -معًـا- عبـارة عـن المكونـين الدياكتيـين للحقيقـة[1].

(١) **الحقيقـة:** التفاعـل الديالكتـي بـين النقيضـين: (الـذات، والعالـم)، المـؤدي لتحقـق العقـل في التاريـخ.

تبعًـا لهـذه الرؤيـة: يكـون الهيغيليـون قـد نحَّـوا جانبًـا الضبـط الكانطـيَّ للإبسـتمولوجيا بوصفـه مرادفًـا للنقـد. ومـن هـذا الانتقـال؛ ظهـرت الفكـرة الماركسـيَّة الجذريَّـة الشـهيرة: النظريّـة النقديّـة -النّقـد العموميّ- هـي نفسـها جـزءٌ مـن الواقـع الاجتماعـيّ.

والحـال: أنَّ الفرضيـة الهيغليَّـة، التـي انطلـق منهـا ماركـس، والقاضيـة بـأنَّ الواقـع يتَّسـم بالتناقضـات، قـد قادتـه، بصـورة مفارقـة، إلى اسـتنتاج مضـادٍّ لهيغيـل: إنَّ محْـو هـذه التناقضـات لـن يعتمـد عـلى تقديـم تأويـلات فلسـفيَّة جديـدة للواقـع، وإنَّمـا عـلى التغيـير العمـليِّ لهـذا الواقـع نفسـه. وهـذا التغيـير لا بُـدَّ أن يحـدث في مسـتوى سياسيٍّ-اقتصاديٍّ، لا في مسـتوى أخلاقـيٍّ. وفي عالـم تسـير وتـيرة التصنيـع فيـه بسرعـة مذهلـة؛ لـم يعـد النقـد والعنف الثـوريُّ يتبديـان كبدائـل لبعضهـما، وإنَّمـا كصورتـين متكاملتـين مـن صـور الـصراع الطبقـيِّ. ولقـد كانـت الحـركات المنظمة للبروليتاريـا هـي مـن دُعـي للقيـام بهـذا الـدور، كـضرب مـن (السياسـة النقديـة).

(ولاحقًا -بالرغم من ذلك- سوف ينخرط الحزب الشيوعيُّ في ممارسة النقد الذاتي. ومثال ذلك، الأكثر إثارة للمشاعر، في الأدب تحديدًا، هو بحسب معرفتي، عمل آرثر كوستلر **Arthur Koestler**: «**ظلام في الظهيرة**» .

في القرن العشرين، حصر الكانطيُّون الجُدد، مفهوم النقد، مرَّة أخرى، في الإبستمولوجيا؛ بُغية معارضة الهيغليَّة والماركسيَّة. لقد أصبح النقد من ثَمَّ مجرد سلاح مُصوَّب في وجه كُلٍّ من السياسات الأيديولوجيَّة والمثقفين الراديكاليين. لقد أصبح النقد، مرة أخرى، مع هذه المجموعة من الفلاسفة، معيار العقل الكوني، ومبدأً أساسيًّا للعلوم الطبيعية والإنسانية؛ لقد عرَّفوا الحقيقة العلميَّة بأنَّها تلك الحقيقة القابلة للنقد، **ومن ثَمَّ**: قابلة للدحض، ولمَّا كانت القِيم الدينيَّة مُحصَّنة ضد النَّقد العقلانيِّ؛ لأنَّها مؤسَّسة على محضِ الإيمان، ومن ثَمَّ: ليست قِيمًا محايدة ولا موضوعيَّة يمكن نقدها، فليس من حقِّها بالتالي -وبناءً على هذا التعريف- أن تنال شرف كونها حقائق علميَّة. وذلك إلى حدٍّ أنَّ (اعتقادًا) ما، يُقدَّم بوصفه مرشَّحًا لأنْ يكون حقيقة؛ مرشحًا لا بُدّ أن يكون وجوده مؤقتًا (وذلك يساوي القول بأنّه لا يجب أخذه على محمل الجدِّ).

الدحضانيُّون Falsificationists : [أصحاب نزعة الدحض، الذين يجعلون القابلية للدحض معيار الحقيقة العلمية -م]، مثل: كارل بوبر، أكَّدوا على وجود علاقة مباشرة أكثر ممَّا يُظنُّ بين الإبستمولوجيا (ما هي معايير المعرفة الصالحة عن العالَم؟)، والسياسة (كيف يُمكن للمرء، شرعيًّا، استخدام السلطة لإنتاج الواقع الاجتماعيِّ، أو لإعادة إنتاجه؟). ولأنَّ معرفتنا العلميَّة عن العالَم لا محالة محدودة، فقد جادلوا بأنَّه في هذا السياق يُعتبر السبيل العقلاني الوحيد، هو النقد والإصلاح التدريجيين للواقع الاجتماعيِّ(١).

---

(١) بوبر، كتاب: «**منطق الكشف العلميِّ**» بمثابة مانيفيستو لنظريَّة (القابليّة للدحض)، وكتابه: «**بؤس التاريخانيَّة**» تضمن نقدًا بالغ الأثر لادعاءات التاريخانيَّة الماركسيَّة العلميَّة.

(٤)

مثالي الأخير، هو من النَّقد العلمانيِّ بوصفه علم لاهوت حديث. **والحال:** أنَّ اللَّاهوت لم يتوقف قطُّ عن ممارسة النقد، وبالأخصِّ منذ بداية القرن التاسع عشر، حيث استوعب اللَّاهوتُ النقدَ العلمانيَّ. يتعامل المثال الذي سأستشهد به الآن مع الميتا-نقد Meta-criticism: إنَّه محاضرة ريغنسبورغ للبابا بندكت السادس عشر في عام (٢٠٠٦م)، والتي فتحَ فيها النيران على الإسلام، ممَّا أثارَ غضبًا متوقَّعًا من المسلمين في أنحاء العالَم. ولست معنيًّا هنا بما اعتقدَ البابا أنَّه قد قام به في هذه المحاضرة، فما لفتَ انتباهي حقًّا هو الطريقة التي يربط بها بين هجومه المطَّرد على الإسلام، وبين نقده للعقل الأوروبيِّ.

فبالنسبة إلى بندكت، يفصلُ اللَّاهوتُ الإسلاميُّ مفهومَ الإله عن العقل (ما يجعله لا مثيل له، ولا يمكن إطلاقًا التنبؤ به، ومن ثَمَّ يُعتبر غير عقلانيٍّ)، في حين أنَّ المسيحيَّة حافظت على الوصل بينهما، عن طريق ما تتضمنه من تناغم بين العقلانيَّة الهيلنيستيَّة وطبيعة الإله: «**في البدء كانت الكلمة (اللوجس)، والكلمة هي الإله**» (يوحنا: ١/ ١) [في اليونانيَّة اللوجس تعني: العقل كما تعني الكلمة -م]. فوفقًا لبندكت، هذه الوحدة بين الإله والعقل، تُفسِّر لماذا كانت المسيحيَّة تدعو الناس للحقيقة عبر الإقناع العقليِّ، بينما الإسلام، على النقيض من ذلك، يستعمل القوَّة ليُدخل غير المسلمين في الإسلام، ويعاقب الناس على اعتناقهم معتقداتٍ خاطئة؛ وأنَّ هذا التقارب العميق بين الإيمان بالكتاب المقدس، والطبيعة المتسائلة للفلسفة اليونانية، الذي شكَّل المسيحية، يُعتبر «حدثًا شديد الأهميَّة، ليس فقط من وجهة نظر تاريخ الأديان، ولكن من وجهة نظر التاريخ العالميِّ أيضًا، وهو الحدث الذي يهمُّنا حتى اليوم».

ومن هنا: جاء نقده للموجات المتتابعة لـ «نفي الأصول الهيلنيستيَّة للمسيحيَّة» Dehellenization [وهو مصطلح صكَّه البابا في هذه المحاضرة -م]. في الفكر الأوروبيّ -بداية من

الإصلاح الدينيِّ، مرورًا بكانط، واللَّاهوت الليبراليِّ، وصولًا إلى الوضعيَّة العلمويَّة-.

فعلى يد هذه الموجات، يشتكي البابا؛ فإنَّ الميثاق الغليظ الذي يربط الإيمان المسيحيَّ بالعقل قد مُزِّق تمامًا.

وعلى الرغم من سجاله ضدّ ما يعتبره هو عقيدة إسلاميَّة (ومن ثَمَّ يمكن القول: ضدّ المهاجرين المسلمين في أوروبا)، وبرغم توكيده على أنَّ أوروبا مسيحيَّة بصورة أساسية؛ فإنَّ نقد بندكت ليس مجرَّد نقدٍ سياسيٍّ: إنَّه يتوخَّى -وعلى نحوٍ علمانيٍّ تمامًا- إعادة التوكيد على تطابق العقل والألوهيَّة.

إنَّ نقده لـ «نفي الأصول الهيلنيستيَّة للمسيحيَّة»، يستهدف به ما يعتبره تضييقًا خطيرًا لنطاق العقل -ومن ثَمَّ: فهو يدعو لتقصٍ غير مقيَّد للحقيقة، وللجهر بها، فالحقيقة ينبغي أن تُعرض علانيةً، حتى لو كان أولئك الذين لا يمتلكونها يعتبرون ذلك فعلًا بشعًا ولا يليق- وخطورته لا تقل أبدًا عن خطورة التجديف.

ويختتم بندكت محاضرته الجامعيَّة على هذا النحو:

«هذه محاولة... في نقد العقل الحديث من الداخل، ولن تفيد شيئًا إذا ما سعت لإعادة عقارب الساعة للوراء، إلى ما قبل عصر التنوير، ومن ثَمَّ: رفض رؤى العصر الحديث... الروح العلميَّة، من ناحية أخرى، هي -كما ذكرت بنفسك آنفًا، بوصفك كاهنًا مبجَّلًا- إرادة أن تكون مذعنًا للحقيقة، وبذلك، هي تجسد موقفًا يندرج ضمن التوصيات الأساسيَّة لروح المسيحيّة».

ومن ثَمَّ: ففي حين أنَّ العقل النقديَّ بالنسبة إلى كانط بمثابة سعْيٍ للالتزام بقانون ترانسندنتالي، (ومؤكدًا للمفارقة في الوقت نفسه على استقلاليَّة الذات الفرديَّة)؛ فإنَّ بندكت يُشير إلى حياة الطاعة المسيحيَّة، التي تقبل اللوجوس الذي يعني في الوقت ذاته كلًّا من

العقل والسلطة الإلهية. لا يطيع المسيحيُّ ببساطةٍ؛ لأنَّه يعتقد أنَّه من المنطقيِّ أن يطيع، لكن أيضًا لأنَّ سلطة الحقيقة تلزمه بذلك. ومن ثَمَّ: فهذا النقدُ المسيحيُّ يُقدِّم لنا نفسه بوصفه مستوعبًا لـ (رؤى) الروح العلميَّة، ولكن في الوقت نفسه يبقى داخل حدود سلطة الكنيسة.

(٥)

جميعُ الفلاسفة المُحدَثين الذين أشرتُ إليهم -كانط، وهيغل، وبوبر- كانوا أساتذة جامعيين؛ وفي الجامعات، يعتبر النَّقد، بغضِّ النظر عن نوعه، شرطًا أساسيًّا لإنتاج معرفة صالحة. ولكن هذا (النقد الاحترافيّ) Professional critique يمكنه أن يدعم الحق في حريَّة التعبير، بدرجة أقل بكثير ممَّا يمكنه أن يدعم إعادة إنتاج التخصُّصات الفكريَّة المختلفة، و(ثقافة الاعتقاد)، التي تتماشى معها. لقد قام جون روبرتس Jon Roberts، وجيمس ترنر James Turner، في كتابهما: «المُقدَّس والجامعة العلمانيَّة»، بوصف بزوغ الجامعة الحديثة بالولايات المتحدة، وثقافتها العلمانيَّة، بداية من الربع الأخير من القرن التاسع عشر. فقد سردا كيف أنَّ تهميش أو إقصاء الدين الرسميِّ في الجامعة الأمريكيَّة قد صُحبَ بالتركيز على البحث العلميِّ، والاحترافيَّة، والتَّخصُّص، وكيف أنَّ هذه الأشياء بدورها قادت إلى تشظية Fragmentation الخريطة التقليديَّة للمعرفة، والتي كانت، حتى ذلك الحين، مُصاغة في لغة لاهوتيَّة.

وفي هذا السياق: خرجت العلوم الإنسانيَّة أخيرًا من رحم تقاليد الفلسفة الأخلاقيَّة والفيلولوجيا، وأعادت التماسك للمعرفة، مكسبةً إيَّاها هالة (دينيَّة) مميزة. وقد كان من تبعات ذلك، تشكُّل فكرة أقل طائفيَّة وأقل مذهبيَّة عن الدين، والتي أصبحت جزءًا من ثقافة ليبرالية، ومن ثَمَّ: جزءًا من فهم هذه الثقافة للنقد.

يقول مؤلفا الكتاب: إنَّ «هذه النسخة الجديدة من التعليم الليبراليِّ كان لها عنصران مفتاحيان؛ **أولهما:**

إطْلاع الطلَّاب على الجمال، خاصَّة كما صوره (الشعر) بشكل عام...

أمَّا الثاني: وهو الذي تمَّ إدراجه في العلوم الإنسانيَّة، فهو التوكيد على الاستمراريَّة التي تربط شعر حقبة معيَّنة بالحقب التي تليها، وخاصة بحقبتنا نحن». ثم يلاحظان بدقة، كيف أنَّه قد تمَّ تلقين الجوهر الأخلاقيِّ للحضارة الأوروبيَّة، للطلاب في مراحل التعليم العالي، عبر دراسة الأعمال الأدبية الكبرى، وأنَّ النقد الأدبيَّ كان هو التخصُّص الذي اتخذ سبيلًا لتحقيق هذه الغاية. هذا هو إذن ضرب من ضروب النقد، الذي له جذورٌ دينيَّة دون أن يكون دينيًّا؛ وذلك ليس بتوكيده على الشكِّ، وإنَّما على نوعٍ مُعيَّن من تهذيب النفس. وهناك ضروبٌ أخرى منه بالطبع.

على مرِّ القرون القليلة الماضية، تشجَّعت السلطات الحديثة واستخدمت العلوم المتطوِّرة بغيةَ تيسير الحياة الاجتماعيَّة وضبطها، ومن ثَمَّ: قد شرْعَنَتْ نوعًا معيَّنًا من النَّقد. وربَّما، هذا هو السبب في أنَّ النقد الذي جُعل سبيلًا لنموِّ المعرفة الصالحة -ومن ثَمَّ لنمو السلطة الحديثة- يعتبر جزءًا من عمليَّة لا يمكن اختزال سماتها الرئيسة دونما إخلال في سمة التشكيك؛ عمليَّة قلَّما كانت هي نفسها عُرضة لنقد مؤثر وعلنيٍّ. **وبالتالي:** فبينما يتمُّ تسويق حرية النقد بوصفها حقّ الفرد الحديث، وواجبًا عليه في الوقت نفسه؛ فإنَّ فاعلية النقد في إنتاج الحقيقة، ما تزال تخضع لمعايير انضباطيَّة معينة، ولا يتمتع من ثَمَّة بالحريَّة التامَّة؛ فمثلًا: مقومات وجوده المادية (المختبرات، والمباني، والموارد الماليَّة للبحث العلميِّ، ودور النشر، والحواسيب الشخصيَّة... إلخ)، مَن يمدُّنا بها في واقع الأمر، هي الشركات الكبرى وسلطات الدولة، التي تراقبها وتُشرف عليها بالطبع؛ لتضمن -دومًا- أنَّ مَن يستخدمونها مواطنون صالحون.

(٦)

في استعراض هذه الملاحظات حول النَّقد، حاولت أن أُشدِّد على: كيف اختلفت الأفهام بشدَّة حوله في التاريخ

الغربيِّ، أفهام متعددة لا يُمكن اختزالُها إلى ذلك التمييز الغُفل بين النقد العلمانيِّ (التحرُّر والعقل)، والنَّقد الدينيِّ (التعصُّب والظلاميَّة)؛ فإنَّ ممارسة النَّقد العلمانيِّ حاليًا تُعدُّ علامةً مميّزة على ما هو حديثٌ وعصريٌّ، على عزْم الذات الحديثة الذي لا يلين على تحقيق الحريَّة وبلوغ الحقيقة، وعلى فعاليَّة المرء السياسيَّة، فقد غدا [أي: النّقد العلمانيّ -م] راهنًا أقرب إلى واجب، وثيق الصلة بالحقِّ في حريَّة التعبير، وتبادُل الآراء.

بيد أنَّ كلَّ خطابٍ نقديٍّ له شروطه المؤسَّساتيَّة، التي تُحدِّد ماهيته، وهدفه، وما يمكنه الاعتراف به، وما الذي يسعى لتقويضه ولماذا، وليس بوسع أيٍّ من النَّقد الفلسفيِّ أو النقد الأدبيِّ أن يدعي أنَّه هو وحده مثوى العقل ومأواه. ولا يهم في ذلك، إذا اتخذ النقد صورة باروديا [محاكاة ساخرة -م] وتهكم، واعتراف بالخطايا، أو صورة نقد سياسيٍّ ذاتيٍّ، أو صورة النقد الاحترافيِّ، أو اتخذ صورة تحليل الخطاب. وللمرء أن يقول، إذا كان كل ذلك بمثابة نماذج ممكنة للنقد؛ فإنَّنا إذن أمام ما يمكن وسمه بمفهوم عائلي Family concept؛ ليس بمكنتنا أن نصوغ له نظريَّة واحدة؛ لأنَّ ممارساته تختلف عن بعضها البعض بشكل جذريٍّ.

أمَّا بعد؛ فربَّما، وبعد كل هذا الطواف حول المفهوم التاريخيِّ لـ «النَّقد»، كان بوسعنا أن نقبض على هذا الشيء المميز، الذي أراد فوكو أن يعينه آنفًا، شيء آخر غير كل هذه التنوعات من الممارسة النقديَّة التي أتيت على ذكرها، لعلَّه يتمثل في الآتي: في بعض المساحات من حياتنا الحديثة، ثمة حاجة ملحَّة للوقوف على أسبابٍ لكلِّ شيءٍ تقريبًا.

إنَّ علاقتنا بالمعرفة، وبالأفعال، وبالآخرين، التي تنتج عن اتخاذنا لهذه الحاجة قاعدة لفهمنا، ربَّما هي ما كان يفكر فيه فوكو عندما تحدث عن (النقد). ويكون من ثمَّ ما سمَّاه فوكو بـ(الموقف النقديِّ) Critical attitude هو جوهر الشجاعة العلمانيَّة.